

تأصيل الفكر الصوتي عند العرب القدماء

الأستاذة: فتيحة نجادي
جامعة حسية بن بوعلي الشلف

الصوتيات عند الخليل بن أحمد الفراهيدي [ت: 175هـ] (*) :

لقد أخذت دراسة الصوت اللغوي اتجاهات متعددة كما أشرنا. فأصحاب المعاجم هم أقدم من تحدث عن الصوتيات من العرب، فالتأمل لمعجم العين للخليل بن أحمد الفراهيدي [ت: 175هـ] يدرك أنه من أهم المصنفات في الدراسات الصوتية. يقول إبراهيم أنيس عن هذا العالم « كان علما من أعلام اللغة، ضرب بسهم وافر في نواح عدة من الدراسات اللغوية، فهو كما يقولون مسئول عن أول معجم عربي (العين)، وهو واضع علم العروض وأوزان الشعر وهو المؤلف في الموسيقى وصاحب الأبحاث المستفيضة التي جاءت في كتاب سيبويه »⁽¹⁾، ولعله من المفيد الإشارة إلى نسبة هذا المعجم للخليل وما يكتنفه من شك، فالواضح أن إبراهيم أنيس من خلال قوله شك هو أيضا في نسبة هذا المعجم، فنراه يتحاشى الجزم بقوله "كما يقولون" وأسالت هذه القضية الكثير من الخبر من قبل الدارسين والباحثين، ولانود أن نخوض في تفاصيل هذا الجانب، ومن بين هؤلاء العلماء ابن جني الذي يروى عنه أنه قال « أما كتاب العين ففيه من التخليط والخلل والفساد مالا يجوز أن يحمل على أصغر أتباع الخليل فضلا عن نفسه »⁽²⁾.

عرض حسام النعيمي مناقشة المحقق لكتاب العين (*) ورده على الآراء المشككة في نسبة الكتاب للخليل وانتهى إلى قوله « وبعد أن عرضنا لكل تلك الآراء

(هو أبو عبد الرحمن بن أحمد الفراهيدي، ولد سنة 100هـ، وتوفي حوالي سنة 175هـ، صاحب معجم العين.)*

(الأصوات اللغوية لإبراهيم أنيس، ص 105¹)

(نفسه، ص 111²)

(العين، للخليل بن أحمد الفراهيدي، تحقيق: د عبد الله درويش، بغداد، 1967، ج 1 ص 6-40.)*

نجد أنفسنا مقتنعين بصحة نسبة الكتاب للخليل بن أحمد، ولكننا مع هذا لا ننفي مجهود الليث فيه كلية إذ هو الراوي الأول للكتاب، بل ومخرجه أيضاً، وليس الاعتراف بمجهود الليث يعني نسبة الكتاب إليه ⁽¹⁾. رغم عدم اقتناع النعيمي بالأراء ومناقشات العلماء.

ولا ينكر ابن فارس إسناد وضع علم العربية لأبي الأسود الدؤلي، نظرا لتواتر الروايات في ذلك رغم الاختلاف بينها، أو إسناد استنباط العروض للخليل «إن هذين العلمين قد كانا قديما وأتت عليهما الأيام، وقلا في أيدي الناس، ثم جددهما هذان الإمامان» ⁽²⁾.

إن المتصفح لمقدمته في هذا المعجم خاصة التي تنم عن حس لغوي دقيق، فتحدث في مخارج الحروف وصفاتها من همس وجهر وشدة ورخاوة ونحوها، والصوت في بنية الكلمة والقوانين الصوتية من قلب وإعلال أو حذف وإبدال وإدغام.

ومن الملفت للانتباه في هذا العمل ترتيبه للمعجم على أساس صوتي، بل هو صاحب الفكرة الرائدة في ترتيب الحروف حسب مخارجها، فوضع كل صوت موضعه وقد أقرت الدراسات العلمية المتخصصة بأجهزتها المتطورة والأدمغة المبدعة في أوروبا أن هذا النهج لا يمكن تجاوزه والاحتفاظ بمسميات الخليل الصوتية، ولم تخالفه إلا في التععيد لبعض المصطلحات.

«لقد هدي بذكائه المتفوق في ذلك إلى مقاييس صحيحة أقر كثير منها علماء الأصوات المحدثون» ⁽³⁾.

لقد أدرك الخليل بحسه المرهف وذكائه المتوقد وصبره العنيف على الاستنتاج أهمية الصوت اللغوي حتى توصل إلى ما توصل إليه من نتائج وما ابتدعه

(الدراسات اللهجية والصوتية عند ابن جني لحسام النعيمي، دار الرشيد للنشر، العراق 1980، ص 152)

(الصاحبي في فقه اللغة لأحمد بن فارس، تحقيق: دمستفي الشويهي، مؤسسة بدران للطباعة والنشر، بيروت، ²)

1963، ص 38

(سر صناعة الإعراب لابن جني، تحقيق: مصطفى السقا وآخرون، مكتبة مصطفى الحلبي، 1954. مقدمة ³)

التحقيق، ج 1، ص 13.

وابتكره دون الاستعانة بالأجهزة العلمية المتطورة المستعملة حديثاً، فهو رائد -كما نعتقد- الدرس اللغوي وفي قوله رحمه الله الذي أورده ابن يعيش في مقدمته إبراز لاضطلاله بالمفاهيم المعرفية للغة « من الأبواب ما لو شئنا أن نشرحه حتى يستوي القوي والضعيف لفعلنا »⁽¹⁾.

منهجية الخليل في الدرس الصوتي:

لقد استطاع الخليل بفطرته الصافية صلة الدرس الصوتي بالدراسات اللغوية الصرفية والنحوية، فأشار إلى أبعادها من ينابيعها الأولى، فأعاد النظر في ترتيب الأصوات القديمة التي تفتقر إلى الأساس اللغوي، فذهب الدكتور المخزومي مشيراً إلى هذا العمل « كان ذلك فتحاً جديداً لأنه كان منطلقاً إلى معرفة خصائص الحروف وصفاتها »⁽²⁾.

ترتيب الحروف:

لقد خالف الخليل الترتيبين الأبجدي والألفبائي في دراسته للأصوات اللغوية، فالأول اقتبسته العرب عن الفينيقيين، وهو ترتيب (أبجد هوز حطي كلمن سعفص قرشت ثخذ ضظغ)⁽³⁾. فكان ترتيبه للحروف العربية وفق المخارج، فبدأ بأصوات الحلق، ثم باقي الحروف منتهياً بالحروف الشفوية، وختم ترتيبه بأصوات العلة والهمزة، فلم يبدأ بالهمزة أو الألف لما لاحظته من تغير صوتي يطرأ عليها، فبدأ معجمه بحرف "العين" باعتباره الصوت الحلقى الأول الذي لا يتغير في الأبنية الصرفية، ولا لأنها أول الحروف مخرجا، ولكنها أول الحروف نصاعة وثباتا « وإنما كان ذواقه إياها أنه كان يفتح فاه بالألف، ثم يظهر الحرف نحو (اب، أت، أخ، أغ،

(مبادئ عامة في تيسير النحو لممدوح محمد حسارة، اللسانيات. مجلة في علوم اللسان وتكنولوجياه، مركز البحوث¹ العلمية والتقنية لترقية اللغة العربية. 2003، ص 28

(في النحو العربي قواعد وتطبيق لمهدي المخزومي، ص 4²)

(ينظر: المدخل إلى علم اللغة ومناهج البحث اللغوي لرمضان عبد التواب، مكتبة خابنخي-القاهرة،³ ط 1997، ص 14-15.

أع) فوجد العين أدخل الحروف في الحلق، فجعلها أول الكتاب ثم ما قرب منها الأرفع فالأرفع حتى أتى على آخرها وهو الميم.⁽¹⁾

رتب الخليل معجمه على أساس صوتي متميز فقال «فالعين والحاء والغين والحاء حلقية، لأن مبدأها من الحلق.

والقاف والكاف لهويتان، لأن مبدأها من اللهاة.

والجيم والشين والضاد شجرية، لأن مبدأها من شجر الفم

والصاد والسين والزاي أسلية، لأن مبدأها من أسلة اللسان.

والطاء والتاء والذال نطعية، لأن مبدأها من نطع الغار الأعلى .

والظاء والذال والثاء لثوية، لأن مبدأها من اللثة .

والراء واللام والنون ذلقية، لأن مبدأها من ذلق اللسان.

والفاء والباء والميم شفوية، لأن مبدأها من الشفة.

والظاء والذال والثاء لثوية، لأن مبدأها من اللثة .

والراء واللام والنون ذلقية، لأن مبدأها من ذلق اللسان.

والفاء والباء والميم شفوية، لأن مبدأها من الشفة.

والباء والواو والألف والهمزة هوائية في حيز واحد، لأنها لا يتعلق بها شيء»⁽²⁾.

إن هذا النظام الفريد في ترتيب حروف المعجم العربي على أساس صوتي يؤكد لنا حسه الدقيق ومعرفته الدقيقة بأن اللغة منطوقة قبل أن تكون مكتوبة، ولعل هذا ما تتفق فيه اللغات جميعها، واعتمد في ذلك على تذوقه للحروف وبحث عن اعمق الأصوات في المخرج، فوجد الهمزة لكنه لم يبدأ بها لأنها لا تستقر على حال ومتقلبة ولا صورة ثابتة لها سواء في النطق أو الكتابة، ثم قارن بين العين والحاء فوجد أن العين أنصع وأوضح في النطق من الحاء فبدأ بها⁽³⁾.

قال ابن كيسان (ت299هـ) سمعت من يذكر عن الخليل أنه قال « لم أبدأ بالهمزة لأنها يلحقها النقص والتغيير والحذف، ولا بالألف لأنها لا تكون في ابتداء كلمة

(العين للخليل بن أحمد الفراهيدي، تحقيق: مهدي المخزومي. دابراهيم السامرائي، دار مكتبة الهلال، ج1، ص47¹)

(العين، المصدر السابق، ج1، ص58²)

(ينظر: المعجم العربي لحسين نصار، ج1 طبعة مكتبة مصر، ص219³)

لا في اسم ولا فعل إلا زائدة أو مبدلة، ولا بالهاء لأنها مهموسة ففيه لاصوت لها، فنزلت إلى الحيز الثاني وفيه العين والحاء، فوجدت العين أنصع الحرفين فابتدأت به ليكون أحسن في التأليف»⁽¹⁾.

لا يخفى إذا أن الدرس الخليلي الصوتي يدل على عبقرية صاحبه خاصة من خلال التقسيم الفيزيولوجي والتصنيف الدقيق بحسب مخارجها: لهوية، شفوية.. مما يدل على إمكانياته وريادته دون أن يكون لديه شيء من الإمكانات الحديثة من آلات تسجيل أو تصوير أو معرفة بنظريات التشريح⁽²⁾. لذلك فقد كان صحيحا ما توصل إليه محقق كتاب العين « إن في المقدمة منه بواكير معلومات صوتية لم يدركها العلم فيما خلا العربية من اللغات إلا بعد قرون عدة من عصر الخليل»⁽³⁾. ولا يكتفي الخليل بتصنيف الأصوات، أصوات الشفة، أصوات الحلق، أصوات الأسلة، بالنظر إلى مخارجها، بل يصف هيئاتها من المدرج وما يصطدم بها من أجهزة النطق، أو يتجاوزها باندفاع الهواء فيصفها، فمنها ما يخرج من الجوف وليس لها حيز تنسب إليه سواه، ومنها ما يقع في مدرجة من مدارج اللسان، ومنها ما يقع في مدرجة من مدارج الحلق، وما يقع من مدرج اللهاة، وما هي هوائية كالألف اللينة والواو والياء⁽⁴⁾.

إن الاهتمام من لدن الخليل وغيره من العلماء في ربط اللغة بالصوت، واعتبار هذا الأخير امتدادا للبنية التركيبية واصلا للأفكار هو الأمر الذي دعا إليه العالم اللغوي السويسري الشهير فرديناند دي سوسير بعدة قرون في اشتراك الأفكار المنظمة بالصوت في تأدية اللغة لوظيفتها كما فعل الخليل.

يقول سوسير «إن المادة الصوتية ليس أكثر ثبوتا، ولا أشد تحديدا من الفكر، وهي ليست قالباً يصب فيه الفكر بالضرورة، بل هي مادة مرنة تنقسم في كل حالة إلى أجزاء متميزة لتوفر الدوال (signifies) التي يحتاج إليها الفكر، وبذلك يمكن

(المزهر للسيوطي، تحقيق: جاد المولى وآخرون، دار إحياء الكتب العربية، (د، دط). ج 1، ص 90¹)

(ينظر: الأصوات اللغوية لإبراهيم أنيس، ص 104-105²)

(العين، مقدمة التحقيق، ج 1، ص 10³)

(ينظر العين للخليل، ج 1، ص 53-57⁴)

تصور الحقيقة اللغوية في مجملها على أنها سلسلة من التقسيمات المتجاوزة التي حددت على مستويين: المستوى غير المجدد للأفكار المكسدة، ومستوى الأصوات . إن الدور المميز للغة بالنسبة للفكر ليس وسيلة صوتية مادية للتعبير عن الأفكار، بل القيام بوظيفة حلقة وصل بين الفكر والصوت في ظروف تؤدي بالضرورة إلى التمييز المتبادل لوحداث الفكر والصوت. ⁽¹⁾

لقد تمكن الخليل بحسه الصوتي وملاحظاته الدقيقة أن يدرا الدخيل والمعرب والمولد والمحدث والمبتدع عن لغة العرب يقول الخليل في هذا الشأن « فإن وردت عليك كلمة رباعية أو خماسية معرأة ن حروف الذلق أو الشفوية، ولا يكون في تلك الكلمة من هذه الحروف حرف واحد أو اثنان أو فوق ذلك، فاعلم أن تلك الكلمة محدثة مبتدعة ليست من كلام العرب، لأنك لست واجدا من كلام العرب لكلمة رباعية أو خماسية إلا وفيها من حروف الذلق أو الشفوية واحدا أو اثنان أو أكثر ⁽²⁾ ». قال الليث، قلت: كيف تكون الكلمة المولدة المبتدعة غير مشوبة بشيء من هذه الحروف؟ فقال نحو: "الكشعئج والخضعئج والكشعطج وأشباههن" في مولدات لاتجوز في كلام العرب، لأن ليس فيهن شيء من حروف الذلق أو الشفوية ⁽³⁾ .

صفات الحروف :

وأراد الخليل بعدما اهتدى إلى هذا الترتيب أن يقف على خصائصها ومزاياها، فأحصى عدد الحروف تسعة وعشرين حرفا، واستطاع تحديد مخارجها وصفاتها من حيث الجهر والهمس، الشدة، الرخاوة، المتوسطة، والمطبقة وتوصل إلى تصنيف الأصوات بالنظر إلى المكان الذي يتم فيه التحكم في الهواء الخارج من الرئتين:

(¹) Ferdinand De Saussure «Cours de Linguistique GLE»éditions Payot.
Paris .1981 P131.

(العين للخليل، ج 1، ص 52)

(ينظر المصدر نفسه، ج 1، ص 52 وما بعدها.)³

1- الأصوات المهموسة: وهي تلك الأصوات التي يجري معها النفس وهي التي إذا أخفيتما ثم كررتها أمكنك ذلك وهي عشرة (هـ، ح، خ، ك، س، ش، ت، ص، ث، ف)⁽¹⁾.

2- الأصوات المجبورة: وهي الأصوات التي يتوقف معها النفس وهي تسعة عشر الباقية⁽²⁾.

3- الأصوات الشديدة: وهي التي تمنع النفس من أن يجري مع الصوت، وهي ثمانية (الهمزة الهوائية، والكاف اللهوية، والجيم الشجرية، والطاء المطبقة، والتاء، الدال، الباء الشفوية، القاف)⁽³⁾.

4- الأصوات الرخوة: وهي التي يجري فيها الصوت مع النفس وهي: الهاء، الحاء، الغين، الخاء، الشين، الصاد، الضاد، الزاي، السين، الظاء، الثاء، الذال، الفاء⁽⁴⁾.

5- الأصوات المتوسطة: وهي التي تقع بين الشدة والرخاوة وهي (ل، م، ي، ر، و، ع، الألف، والنون)⁽⁵⁾.

6- الأصوات المطبقة: وهي (ص، ظ، ض) وسميت مطبقة نظرا لارتفاع آخر اللسان لينطبق على الحنك الأعلى⁽⁶⁾.

7- أصوات الصفير: وتلاحظ في أواخر الكلمات الساكنة كالصاد، الزاي، السين وتسمى بالأصوات الأسلية نسبة إلى مخرجها من أسلة اللسان، وقد حملت تلك الأصوات هذه الصفة لأنه يصفر بها وتتميز بشدة الوضوح السمعي واحتكاكها إن لم تبلغ مبلغ الصوائت.

(عبقرى من البصرة لمهدي المخزومي، دار الرائد العربي- بيروت لبنان، ط2، 1986، ص38.¹)

(المرجع السابق، ص38.²)

(نفسه، ص38.³)

(نفسه، ص38.⁴)

(نفسه، ص39.⁵)

(المرجع السابق، ص40.⁶)

وهناك تصنيفات أخرى أشار إليها الخليل وهي الحروف المعتلة والصحيحة، فالمعتلة ثلاثة حروف وهي (الألف، الواو والياء) وسميت كذلك لتغيرها واستخلاف بعضها من بعض، فأحرف العلة أربعة الهمزة، الألف، الواو، الياء « أما الهمزة فلا هجاء لها إنما تكتب مرة ألف ومرة واوا، أو ياء مرة »⁽¹⁾.

فهي حروف مريضة، حروف اعتلال، على حين أن جميع الحروف الأخرى صحيحة قوية، سليمة البنية، فهذه يمكن أن تستعمل ساكنة (غير متبوعة بحركة)، ومتحركة (متبوعة بحركة) غير أن الأحرف الثلاثة لها وضع خاص، فهي ساكنة، ولا يمكن أن تكون إلا مدا، وهي حروف المد والاستطالة، وهي متحركة، فالألف تغير من شخصيتها لتصبح حرفا آخر هو الهمزة...⁽²⁾.

إن الخليل بصنيعة هذا جدير أن يكون رائدا في دراسة الصوت اللغوي، والوصف الدقيق للجهاز النطقي فلقد كان ضليعا بكل تفصيلاته، وقد أشارت الكثير من البحوث الأوروبية إلى هذه الأبعاد إشارات تنم عن دقة هذه المقاييس ودقتها العلمية» ومن أحسن ما عرض له العرب في دراسة الأصوات ما نجده عند الخليل من وصف الجهاز الصوتي وهو الحلق والفم إلى الشفتين، وتقسيمه إياه إلى مناطق ومداخل يختص كل منها بحرف أو مجموعة حروف، وما أشار إليه من ذوق الحروف لبيان حقيقة المخرج، فقد هدي بذكائه المتفوق إلى ذلك إلى مقاييس صحيحة أقر كثيرا منها علماء الأصوات المحدثون «⁽³⁾.

الجهاز الصوتي:

إن الدارس لمقدمة كتاب العين يدرك هذا الإبداع والدقة المتناهية في وصفه لمخرج كل صوت، وليس هذا فحسب، بل المقارنة بين بعض الأصوات، فاكتسب بحق صفة الريادة في هذا المجال، يقول الدكتور أحمد محمد قدور « وليس بين أيدينا دليل يشير إلى أن أحدا تقدم الخليل في هذا المجال، لذلك يعد الخليل رائدا

(نفسه، ص 41.¹

(التفكير الصوتي عند العرب في ضوء سر صناعة الإعراب لابن جني للأب هنري فليش، مجلة مجمع اللغة العربية،²

تحقيق وتعريب د: عبد الصبور شاهين، الهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية - القاهرة، 1968، ج 23، ص 61

(سر صناعة الإعراب لابن جني، تحقيق: مصطفى السقا وآخرون، مقدمة التحقيق، ج 1، ص 13.³

لهذا العلم كبريادته لعلوم اللغة والعروض عند العرب بلا منازع»⁽¹⁾. لقد تمكن من تقديم العشرات من المصطلحات في علم الأصوات، أدركها العلم الحديث بوسائله المختلفة المتطورة» تضم المقدمة في طبعة الأستاذين مهدي المخزومي وإبراهيم السامرائي بحسب إحصائيا نحو من مائة وسبعين مصطلحا في مجال علم الأصوات بفروعه المختلفة»⁽²⁾.

ويمكن أن نستنتج مما سبق أن للعرب باعا طويلة في الدراسات الصوتية في غاية الدقة وهذا يفند ادعاءات المستشرقين وحتى بعض الباحثين العرب، أن هذه الصوتيات العربية بشتى فروعها متناثرة بالبحوث التي ضمتها الحضارات الإنسانية المتعاقبة، كالهنود واليونان» ولقد تبين لي حين عملت في مقدمة كتاب "العين" للخليل أن كل المصطلحات التي استعملها الخليل ترجع إلى أصول لغوية معروفة عند العرب ومدونة لدى اللغويين، وينطبق هذا على كل ما يتصل بجهاز النطق انطباقا تاما»⁽³⁾.

إن المنهجية التي اعتمدها هذا العالم في هذا المجال تتوقف على رسم مخطط شامل لمخرج كل صوت وضبط الأحياز. يقول الخليل « فأقصى الحروف كلها العين ثم الحاء، ولولا بحة في الحاء لأشبهت العين لقرب مخرجها من العين ثم الهاء. ولولا الهتة في الهاء لأشبهت الحاء لقرب مخرج الهاء من الحاء، فهذه ثلاثة أحرف في حيز واحد بعضها أرفع من بعض، ثم الخاء والغين في حيز واحد كلها حلقيه، ثم القاف والكاف لهويتان والكاف أرفع، ثم الجيم والشين والضاد في حيز واحد. ثم الصاد والسين والزاء في حيز واحد، ثم الطاء والذال والتاء في حيز واحد، ثم الراء واللام والنون في حيز واحد، ثم الفاء والباء والميم في حيز واحد. ثم الألف والواو والياء في حيز واحد. والهمزة في الهواء لم يكن لها حيز تنسب إليه»⁽⁴⁾. إنَّ هذا الترتيب الخليلي لم يرض عنه ابن جني وعده خطلا واضطرابا ومخالفة مقارنة

(اللسانيات وآفاق الدرس اللغوي لأحمد محمد قدور، دار الفكر دمشق، سوريا، ط1 2001، ص42.¹

(نفسه، ص42-43.²

(اللسانيات وآفاق الدرس اللغوي لأحمد محمد قدور، ص56.³

(ينظر: العين للخليل، ج1، ص57-55.⁴

بترتيبها عند سيبويه وتلاه أصحابه عليه، وهو الصواب الذي يشهد التأمل بصحته، إلا أن ابن سيده جارى في "المحكم" الخليل في ترتيبه للحروف رغ أنه خالفه في الأخير، فرتب بعد الميم الألف، الياء والواو⁽¹⁾.

لقد استطاع الخليل بهذا الوصف العلمي أن يضاهي ما توصلت إليه الدراسات في وصف جهاز النطق وأعضائه، وقد أشرت إلى ذلك بعض الإشارات في وصفه لهذا الجهاز، لكن هذا الوصف لم يتعرض فيه إلى الوترين الصوتيين (C-V)^(*) وإبراز وظيفتهما أثناء عملية إصدار الأصوات ولا ضير «لكن هؤلاء جميعا لم يعرفوا الوترين الصوتيين، لأنهم اعتمدوا الملاحظة وتتبع الأثر والوصف الكلي، ولم يعتمدوا على التشريح والوصف الطبي الدقيق مما كان بعيدا عن متناولهم، ولكن الغريب هو ابن سينا الذي وصف تشريح الحنجرة وصفا مسهبا لم يتعرض للوترين الصوتيين مطلقا، ويبدو أن ملاحظاتهم

أوصلتهم إلى معرفة أثر الوترين الصوتيين في التصويت والجهر⁽²⁾.

الدرس الصوتي عند سيبويه [ت: 180 هـ] (*):

لقد أشرنا فيما سبق أن الدرس الصوتي نشأ وترعرع وكانت معالجته ضمن قضايا لغوية أخرى كالنحو والصرف والبلاغة وغيرها، فقد كان لعلماء اللغة الأولين من أمثال الخليل وسيبويه وابن جني قصب السبق في التعرف على أعضاء النطق وما لها من تأثيرات في إصدار الأصوات. فهم وإن لم يبلغوا درجة الدقة التي وصل إليها المحدثون بالاعتماد على الآلات المتطورة في التشريح، فقد أدركوا وضعيات هذا

(ينظر: قضايا أساسية في علم اللسانيات الحديث لمazen الوعر، دار طلاس للدراسات والترجمة والنشر، ط1،¹ 1988، ص629-630، بتصرف.

(هما رباطان مرنان يشبهان الشفتين، ويمتدان أفقيا من الخلف إلى الأمام حيث يلتقيان عند ذلك * البروز المسمى "تفاحة آدم". ويذهب علماء الأصوات أن استعمال كلمة وتر أو حبل هو استعمال غير صحيح، فهما في الحقيقة شفتان موضوعتان وضعاً متوازياً.

(اللسانيات وآفاق الدرس اللغوي لأحمد محمد قدور، ص72.²

(هو أبو بشر عمرو بن عثمان بن قنبر مولى بني كعب، ولد نحو سنة 140هـ، ثم جاء إلى البصرة * شابا فأخذ عن الخليل بن أحمد وعيسى بن عمر ويونس ابن حبيب وعن أبي الخطاب الأخفش الأكبر، توفي نحو سنة 180هـ

الجهاز- كما بينا عند الخليل- في إنتاج الأصوات. إن جهود صاحب الكتاب في المجال الصوتي- في الحقيقة- لا تبتعد في أغلبها عن مبتكرات الخليل، فنراه يوافقه تارة، ويخالفه تارة أخرى. إذ أن أعضاء النطق بمقارنة بسيطة بين هذين العالمين الجليلين هي نفسها، وكذا بالنسبة لمدايح الحروف ويقصد بها الأصوات، فقد نحا سيبويه منحى أستاذه الخليل، إذ تبدأ بأقصى الحلق، وتنتهي بالشفيتين، فالشبه قاسم مشترك بينهما⁽¹⁾.

إن المتمعن في الكتاب لسيبويه يستطيع استخلاص مدى الفرق في ترتيب الحروف بينه وبين الخليل. فقد بدأ سيبويه بالهمزة والألف والهاء، وقدم الغين على الحاء وأخر القاف عن الكاف إلى غير ذلك من المسائل المختلف فيها. ترتيب الحروف: جاءت دراسة سيبويه للأصوات أوفى وأكثر دقة وشمولية، فقسم الأصوات إلى أصول وفروع جيدة وردية بعد أن أحصاها عدا. فكان ترتيبه على هذا الشكل: همزة، ا، هـ

ع، ح، غ، خ

ك، ق

ض، ج، ش

ي، ل، ر

ن، ط، د

ت، ص

ز، س، ظ

ذ، ث، ف

ب، م، و،⁽²⁾.

ثم يضيف إلى الحروف الأصلية ستة حروف فرعية مستحسنة حيث يقول: «وتكون خمسة وثلاثين حرفا بحروف هن فروع وأصلها من التسعة والعشرين وهي كثيرة لا يأخذ بها وتستحسن في قراءة القرآن والأشعار وهي: النون الخفيفة والهمزة

(ينظر: الكتاب لسيبويه، تحقيق: عبد السلام هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط3، 1992، ج2، ص405.¹)

(ينظر: الكتاب لسيبويه، ج2، ص405.²)

التي بين بين، والألف التي تمال إمالة شديدة، والشين التي كالجيم والصاد التي كالزاي، وألف التفخيم...»⁽¹⁾. ثم أضاف سبعة حروف أخرى فرعية فيها الجيدة والردئية» وتكون اثنين وأربعين حرفا بحروف غير مستحسنة ولا كثيرة في لغة من ترتضي عريبته، ولا تستحسن في قراءة القرآن ولا في الشعر، وهي: الكاف التي بين الجيم والكاف، والجيم التي كالكاف، والجيم التي كالشين، والصاد الضعيفة، والصاد التي كالسين، والطاء التي كالتاء، والظاء التي كالتاء، والباء التي كالفاء»⁽²⁾.

مخارج الحروف :

لقد استطاع سيبويه أن يحدد لكل مجموعة من الأصوات مخرجا معينا، وقدم له وصفا دقيقا، وبذلك يكون قد خالف أستاذه الخليل في نظريته إلى مخارج الحروف، فعدها الأستاذ ثمانية وأحصاها سيبويه ستة عشر مخرجا، فيقول: «وللحروف ستة عشر مخرجا فللحلق منها ثلاثة:

أ- أقصاها مخرجا: الهمزة والهاء، والألف.

ب- من أوسط الحلق: العين، والحاء.

ج- أدناها مخرجا من الفم: الغين، والحاء.

د- من أقصى اللسان وما فوقه من الحنك الأعلى: القاف.

هـ- من أسفل من موضع القاف من اللسان قليلا وما يليه من الحنك الأعلى: الكاف.

و- من وسط اللسان بينه وبين وسط الحنك الأعلى: الجيم، والشين، والياء.

ز- من بين أول حافة اللسان وما يليه من الأضراس: الضاد⁽³⁾.

ح- من طرف اللسان بينه وبين ما فوق الثنايا: النون.

ط- من مخرج النون إلا أنه أدخل في ظهر اللسان قليلا لانحرافه إلى اللام: مخرج الراء.

ي- مما بين طرف اللسان وأصول الثنايا: مخرج: الطاء، والذال والتاء.

ك- مما بين طرف اللسان وفوق الثنايا: مخرج: الزاي، والسين، والصاد.

ل- مما بين طرف اللسان وأطراف الثنايا: مخرج: الظاء، والذال، والثاء.

(المصدر نفسه، ص431.)¹

(المصدر نفسه، ص432.)²

(الكتاب لسيبويه، ج4، ص431.)³

- م- من باطن الشفة السفلى وأطراف الثنايا العليا: مخرج: الفاء.
ن- مما بين الشفتين: مخرج: الباء، والميم، والواو.
س- من الخياشيم: مخرج: النون الخفيفة⁽¹⁾.

صفات الحروف: الجهر والهمس:

لقد عرّف سيبويه المجهور قائلاً: «حرف اشبع الاعتماد في موضعه، ومنع النفس أن يجري معه حتى ينقضي الاعتماد عليه، ويجري الصوت، بينما المهموس حرف أضعف الاعتماد في موضعه حتى جرى النفس معه»⁽²⁾.

إن هذا التعريف ينم عن ذكائه الثاقب وملاحظاته المستمرة، ودليلنا في ذلك اعتماد الكثير من النحاة والدارسين المحدثين على هذا الوصف، يقول عبد الصبور الشاهين «وقد ظلت محاولة سيبويه تفسير المجهور والمهموس من الأصوات قانوناً سار عليه جميع من جاء بعده من النحاة والقراء، إلى أن جاءت بحوث المحدثين فصدمت كثيراً مما قاله في هذا الباب»⁽³⁾.

إن هذه الدراسة المميزة لسيبويه للأصوات مع أستاذه الخليل، فقد تمكنا من وضع قواعد مؤسسة جعلت طائفة من اللغويين اللاحقين يترسم خطاهما، ويسير على آثارهما، كالمبرد في "المقتضب" والزمخشري في "المفصل" والزجاجي في "الجمال" ولقد حاولنا أن نتبع النصوص التي جاءت في كتب فريق منهم، فنقلنا ما جاء في كتاب سر صناعة الإعراب لابن جني في القرن الرابع الهجري وما جاء في المفصل للزمخشري في القرن السادس الهجري، وما جاء في كتاب النشر لابن الجزري في أوائل القرن الرابع إلى التاسع الهجري، فلم نجد في هذه الكتب المشهورة شيئاً جديداً أضافه أصحابها على كلام سيبويه في أصوات اللغة سوى بضعة مصطلحات

(الكتاب، المصدر نفسه، ج4، ص434)¹

(المصدر نفسه، ج2، ص405)²

(أثر القراءات في الأصوات والنحو العربي لعبد الصبور شاهين، ص205)³

ترددت في كتيمهم ولا تزال تتردد على السنة دارسي القراءات حتى الآن من أمثال:
لثوية، ذلقية، أسلية، نطعية، شجرية، لهوية...»⁽¹⁾.

صنف سيويوه الأصوات بحسب ما يعرف الآن في الدراسات الصوتية
الحديثة بوضع الأوتار الصوتية (Cordes Vocal) فيما سماه هذا العالم الفذ بالجهر
والهمس.

فالمجهور: "حرف اشبع الاعتماد عليه في موضعه، ومنع النفس أن يجري معه
حتى ينقضي الاعتماد عليه ويجري الصوت" ⁽²⁾. والحروف المجهورة: "الهمزة،
الألف، العين، الغين، القاف، الجيم، الياء، الضاد، اللام، النون، الراء، الطاء،
الدال، الزاي، الظاء، الذال، الباء، الميم، والواو" ⁽³⁾. فهي تسعة عشر حرفا .

أما المهموس فهو: "حرف أضعف الاعتماد عليه في موضعه حتى جرى النفس
معه" ⁽⁴⁾. وهي: "الهاء، الحاء، الخاء، الكاف، الشين، السين، التاء، الصاد، الثاء،
والفاء" ⁽⁵⁾. فذلك عشرة أحرف. ولم يكتف سيويوه بهذا التصنيف، بل صنفها
بحسب النطق إلى شديدة، ورخوة ومتوسطة، فالشديد "هو الذي يمنع الصوت أن
يجري فيه" ⁽⁶⁾. وهي: "الهمزة، القاف، الكاف، الجيم، الطاء، التاء الدال، والباء" ⁽⁷⁾.
أما الحروف الرخوة: "وأشبه ذلك أجريت فيه الصوت إن شئت" ⁽⁸⁾. وهي "الهاء،
الغين، الحاء، الخاء، الشين، الصاد، الضاد، الراء، الزاي، السين، الظاء، الثاء،
الذال، الفاء" ⁽⁹⁾.

(1) الأصوات اللغوية لإبراهيم أنيس، ص 107.

(2) المصدر السابق، ص 434.

(3) المصدر السابق، ص 434.

(4) المصدر السابق، ص 434.

(5) المصدر السابق، ص 434.

(6) المصدر السابق، ص 434.

(7) نفسه، ص 435.

(8) الأصوات اللغوية لإبراهيم أنيس، ص 435.

(9) نفسه، ص 435.

أما المتوسطة، فالعين تصل إلى التردد بها لشمها بالحاء.
إذا يعتبر الكتاب لسيبويه من خيرة المصادر القديمة التي تناولت علم
الأصوات بحثا ودراسة، بل هو أكثر المصادر تأثيرا في دراسة ابن جني كما سيأتي بيانه
في الفصل الأخير.

عالج سيبويه⁽¹⁾ الأصوات في الجزء الرابع من "الكتاب" في باب الإدغام حيث
تحدث عن عدد الحروف العربية ومخارجها وصفاتها.

وقد ذكر سيبويه ثلاث آراء في عدد الأصوات العربية فهي عنده تسعة
وعشرون حرفا هي الحروف الأصول (الهمزة، الألف، الهاء، العين، الحاء، الغين،
الخاء، الكاف، القاف، الضاد، الجيم، الشين، الياء، اللام، الراء، النون، الطاء،
الدال، التاء، الصاد، الزاي، السين، الظاء، الذال، الثاء، الفاء، الباء، الميم،
الواو)⁽²⁾.

خمس وثلاثون حرفا هي "فروع أصلها من التسعة والعشرين وهي كثيرة
يؤخذ بها وتستحسن في قراءة القرآن والأشعار وهي: النون الخفيفة، الهمزة التي بين
بين. والألف التي تمال إمالة شديدة والشين التي كالجيم والصاد التي تكون كالزاي
وألف التفخيم"⁽³⁾. وتكون اثنين وأربعين حرفا بأصوات غير مستحسنة ولا كثيرة في
لغة من ترضى عربيته ولا تستحسن في قراءة القرآن ولا في الشعر وهي مثلا: الكاف
التي بين الجيم والكاف، الضاد الضعيفة والصاد التي كالسين، والطاء التي
كالتاء..."⁽⁴⁾.

ويجعل سيبويه للأصوات ستة عشر مخرجا. في حين جعل لها أستاذه الخليل
تسعة مخارج وقد استطاع سيبويه من جانب آخر التصنيف في صفات الأصوات
حسب المجهور والمهموس فقال في المجهور: "حرف أشبع الاعتماد في موضعه، ومنع

(1) أبو بشر عمرو بن عثمان بن قنبر (سيبويه) صاحب الكتاب المتوفى سنة 180 هـ.¹

(2) سيبويه، الكتاب، تحقيق وشرح: عبد السلام محمد هارون، القاهرة، مكتبة الخانجي، 1982م، 4/431.²

(3) سيبويه، الكتاب، تحقيق وشرح: عبد السلام محمد هارون، 4/432.³

(4) سيبويه، الكتاب، تحقيق وشرح: عبد السلام محمد هارون، 4/432.⁴

النفس أن يجري معه حتى ينقضي الاعتماد عليه ويجري الصوت " ⁽¹⁾ . وأيضاً في تعريفه للمهموس وهذه إشارة إلى فطنة سيبويه عند حدوث الاعتماد وما توصلت إليه الدراسات الحديثة حول " موضع الأوتار الصوتية " أثناء الجهر والهمس ⁽²⁾ . إضافة إلى تصنيفه للأصوات حسب طريقة النطق إلى شديدة، رخوة، مابين الشديدة والرخوة، المكرر، اللين، والإطباق، والانفتاح... وغيرها.

ويقول سيبويه في آخر دراسته هذه: " وإنما وصف لك حروف المعجم الصفات لتعرف ما يحسن فيه الإدغام وما يجوز فيه، وما لا يحسن فيه ذلك ولا يجوز فيه، وما تبد له استثقلاً كما تدغم، وما تخفيه وهو بزنة المتحرك " ⁽³⁾ .

ورغم أن سيبويه خالف أستاذه الخليل في ترتيب الأصوات العربية حسب مخارجها غير أنه لم يخالفه في منهجه.

وللوقوف على حقيقة التباين والاختلاف ومواضع الشبه والتماثل بين الخليل وسيبويه، ارتأينا أن نجمل هذه النقاط في مقارنة بسيطة بينهما.

بين الخليل وسيبويه:

كتاب العين للفراهيدي	الكتاب لسيبويه
ع	أ
ح	ا
هـ	هـ
خ	ع
غ	ح
ق	غ
ك	خ
ج	ق
ش	ك
ض	ج

(الكتاب لسيبويه، 4 / 434. ¹)

(عصام نور الدين، علم وظائف الأصوات اللغوية-الفونولوجيا، ص 163. ²)

(سيبويه، الكتاب، 4 / 436. ³)

ش	ص
ي	س
ض	ز
ل	ط

كتاب العين للفراهيدي	الكتاب لسيبويه
د	ن
ت	ر
ظ	ط
ذ	د
ث	ت
ر	ز
ل	س
ن	ص
ف	ظ
ب	ذ
م	ث
و	ف
ا	ب
ي	م
ء	و

قراءة في الجدولين:

في قراءة بسيطة للجدولين، يتضح أنه لم يحدث في المجموعات الصوتية تغيير كبير فقد اقتصر الفرق على إسقاط كتاب العين حرف الهمزة من حروف الحلق ومعها الألف وتأخيرهما إلى آخر الحروف، وإسقاط الباء من الحروف الشجرية ووضعها بين الألف والهمزة، وتقدم حرف وسط الحلق على حرف أقصى الحلق، إذ ذكر الهاء بعد العين والحاء، وإن حرفي أدنى الحلق تقدم الحاء منهما على

الغين، وجاءت حروف الصفيّر بهذا الترتيب: ص، س، ز. وهي عند سيبويه: ز، س، ص. وفي حروف الذلاقة تقدمت فيها: ر. وجاء بعدها ل، ن، والراء مؤخرة عليهما عند سيبويه.

كما يمكننا ملاحظة الاختلاف البين بالنظر إلى ترتيبها في المجموعات الصوتية من حيث تقدمها وتأخرها، فقد جاءت حروف الصفيّر في كتاب "العين" بعد الضاد وهو حرف حافة اللسان، والذي عند سيبويه بعد الضاد حروف الذلاقة، ونتيجة لهذا التقديم في حروف الصفيّر، فقد وضع مكانها حروف الذلاقة ومعنى ذلك أن في العين حدث تبادل أماكن بين حروف الصفيّر وحروف الذلاقة.

وفي قراءة لهذا الترتيب، نلاحظ أن سيبويه جعل لهذه الحروف ستة عشر مخرجا، فجعل ثلاثة للحلق وخصص للفم ثلاث مناطق في أقصاه وأدناه، أوسطه، وحدد لكل صوت مخرجا مع الوصف الدقيق، فوضح المجهور من المهموس والشديد من الرخو.

لقد انطلق سيبويه في دراسته المستفيضة مبتدئا بالجملة، ثم الكلمة فالصوت، فقد أصبح من المسلم به في الدراسات اللغوية الحديثة، أن دراسة اللغة حتى تكون مجدية مفيدة، لا بد أن تقوم على الحد الأدنى من التعبير المفيد وهو ما اصطلاح على تسميته (بالجملة) فهي الخلية الحية في جسم اللغة، فإن كانت اللغة نظاما قارا في الأذهان، فالجملة هي الحد الأدنى من هذا النظام.

ومما يلفت الانتباه عند سيبويه في صفات الحروف ومخارجها، هو تمييزه الدقيق بين صفتي الجهر والهمس، فمصدر الصوت المجهور يشترك فيه الصدر والفم، أما الصوت المهموس فمصدره من الفم وحده⁽¹⁾.

لقد بدا واضحا -حين المقارنة- أن الدراسات الحديثة في المجال الصوتي والبحوث قد استفادت كثيرا من هذين العالمين، ولاعجب، أن يشيد بفضلهما العديد من الباحثين في هذا الحقل المعرفي « إن الدرس اللغوي في الفترة الخليلية والسيبوية كانت قد بلغت ذروتها اللسانية، ولم يعد العجز عجزا لمصطلح، بل انتقل

(الكتاب لسيبويه، ج2، ص284.¹)

الدارسون إلى هذا التمازج العلمي لتوظيف كل العناصر اللسانية...»⁽¹⁾. وقال كذلك « ولا يظن بنا ظان أننا نتجاهل الجهود اللغوية المضنية التي اضطلع بها اللغويون العرب القدماء، فنحن مازلنا ننحني لهم إجلالا وإكبارا كلما تصفحنا أثرا من آثارهم أو اطلعنا على عمل لغوي من أعمالهم، فمقدمة الخليل بن أحمد وحدها دون الغوص فيما سبقه ولحقه من أفكار لغوية علمية تستحق هذا الإنحناء والاعجاب وكثيرا من الدهول »⁽²⁾.

بل أن الأوربيين أنفسهم يعترفون بوجاهة هذه الأبحاث في المجال الصوتي. يقول جورج مونان « منذ القرن الثامن الميلادي، كان علماء اللغة في البصرة يسعون إلى وصف لغتهم وصفا صوتيا، وسواء أكانوا قد أوجدوا تلقائيا علما للأصوات جديرا بأن يذكرنا بالعلامة "بانيي" أم أنهم اقتبسوا هذا العلم عنه، فتلك مشكلة على حده، ولكن لا بد لنا بادئ ذي بدء أن نعتزف بوجود هذا العلم في الأصوات، وأنه علم فذ ممتاز »⁽³⁾.

الدراسة الفيزيولوجية للأصوات العربية

الصوت ظاهرة طبيعية، وشكل من أشكال الطاقة، وهو يستلزم وجود جسم في حالة اهتزاز أو تذبذب، وهذه الاهتزازات أو الذبذبات تنقل عبر وسط معين حتى تصل إلى أذن الإنسان، وقد تكون ناتجة عن اصطدام جسم بآخر، أو سقوط جسم أو انفجار أو غير ذلك، كما أنها قد تكون صادرة عن الحيوانات إلى جانب صدورها عن الإنسان. وقد فرّق العلماء بين نوعين من الأصوات: النوع الأول هو الصوت الطبيعي، وهو ما يصدر عن كل ظواهر الطبيعة وكل الموجودات فيها، والنوع الآخر هو ما يصدر عن الإنسان دون غيره. فالجهاز النطقي للإنسان قادر على إنتاج أصوات كثيرة، كما أنه قادر على إنتاج أنواع من الضجيج والضوضاء تبعد عن اللغة بقدر

(1) في رحاب اللغة العربية لعبد الجليل مرتاض، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 2004. ص 9.

(2) جدوى الإعراب في العربية لدى اللغويين العرب القدماء لعبد الجليل مرتاض، ص 1، مداخلة في الملتقى الوطني لتيسير النحو - جامعة ابن خلدون تيارت 2009.

(3) G-Mounin - Histoire de la linguistique des origines au 20^{ème} siècle » Paris. 1967P107.

ما تبعد عنها أصوات الطبيعة. ولكي "يكون الصوت لغوياً بالمعنى العام فإن الأصوات الصادرة عن الجهاز النطقي يجب أن تكون ذات معنى وتنقل رسالة محددة من عقل إنسان إلى آخر⁽¹⁾". وهذا الصوت هو الذي يهمننا هنا، أي أننا نهتم بالصوت باعتباره ظاهرة طبيعية وباعتباره في نفس الوقت ظاهرة سيكولوجية⁽²⁾... إذا فعلم الأصوات هو علم يدرس الأصوات البشرية بمعزل عن الوظائف اللغوية التي تؤديها هذه الأصوات، ويعد علماً قديماً بالقياس إلى علم الأصوات الوظيفي (Phonologie).

حيث بدأ هذا العلم يأخذ مكانه منذ بدء الاهتمام بملاحظة الظاهرة الصوتية بجانبها الفيزيائي والفيزيولوجي، يقول الدكتور عبد القادر عبد الجليل: «يدرس علم الأصوات الصوت الإنساني بصورة عامة، باعتباره مادة حية ذات تأثير سمعي، إن هذه الدراسة لا تشمل بطبيعتها النظر في الوظيفة الصوتية ولا القوانين التي تحكم بنيتها، وإنما تنصب على الكيفية التباينية لطبيعة النتاج الصوتي وانتقالاته ومن ثم استقباله»⁽³⁾. ومن اهتمامات هذا العلم:

- 1- وصف جهاز النطق الإنساني وصفا تشريحياً.
 - 2- البحث في الصوت من حيث جهاز الاستقبال، فتتلقى الأذن الصوت، ويتم تحويله عبر الأعصاب الناقلة إلى الدماغ.
 - 3- وصف النشاط العصبي والعضلي في إنتاج واستقبال الأصوات.
 - 4- تحديد مخارج الأصوات، وضبط عملها في التجويف الصوتي⁽⁴⁾.
- إذا من أبرز الاهتمامات التي يولمها علم الأصوات عناية بالغة، ويتناولها بالدرس والتحليل ثلاث مسائل أساسية وهي:
- أ- إحداث المتكلم للصوت، وهذا الفرع يسعى الدراسة الصوتية الفيزيولوجية أو النطقية (Phonétique Articulatoire).

(أسس علم اللغة لماريو باي، ترجمة: د. أحمد مختار عمر، ليبيا، منشورات جامعة طرابلس كلية التربية، 1973،¹ ص 38.

(أصوات اللغة لعبد الرحمن أيوب، ط 2، القاهرة: مطبعة الكيلاني 1968، ص 95.²

(الأصوات اللغوية لعبد القادر عبد الجليل، كلية العلوم والآداب، الجامعة الهاشمية، الأردن 1998، ص 21.³

(ينظر: مباحث في اللسانيات لأحمد حساني، ص 71.⁴

- ب- انتقال الصوت في الهواء، ودراسة الموجات الصوتية (Ondes)، وتعرف هذه الدراسة بالفيزيائية أو الأكوستيكية (PHY-Acoustique).
- ج- استقبال الأذن للصوت، وتعرف هذه الدراسة بالدراسة الصوتية السمعية (PHON-Auditive)، وهذا النوع الأخير هو أحدث فروع علم الأصوات على الإطلاق. وهو ذو جانبين، جانب عضوي أو فيزيولوجي وجانب نفسي.